الفصل

٤

معاذير الفئات المهنية المختلفة

مُنْشها وِزْن وشفايْك يبعثان بتحياتهما

على أن هدف الهجمات الغاضبة يتمثل في كثير من الأحيان في السلطات الرسمية: فثمة معلومات خاطئة، وأجوبة متلكّئة على أسئلة ما، ولا ردّة فعل على مصاعب معيّنة.

القاعدة الأولى: «الإنسان لا يكون هو ذاته مخطئاً، أبداً».

القاعدة الثانية: «الآخرون هم المذنبون».

وعلى هذا فهل يعني ذلك: «أن عليّ هنا أن أبادر أولاً إلى نظرة في الأوراق المرفقة. أنا لم أعالج الحدث». وفي الماضي كانت تقلّب الأضابير، أما اليوم فيُسأل الحاسوب. على أن القائم بالخدمة مشغول الآن. اسم مسبّب المتاعب، ورقمه، وشخصه، يجب إخراج هذا على الشاشة بعمل ساحر. وكثيراً ما يسرّ المرء أن تأتي ذريعة هي قول الواحد منهم: «عجباً، هذا لا يريد، مرة أخرى... كلاّ، تعال... إذاً كل شيء مرة أخرى...» هل تستطيع أن تضبط هذا وتراقبه؟ كلا، ولكن الآن يمضي العرض قُدُماً. «آه، هذا، على ما يبدو، هو ما كان ينطوي على اعوجاج أو ينتهي إلى الضياع... إنه شيء كهذا! وإذاً فأنا لا أستطيع أن أذكر الحديث، ومن الممكن أن أكون أستوعبتُه، كما تقول أنت، ولكن زميلي اشتغل بهذه المسألة بعد ذلك.

وبذلك يكون قد تم اتباع القاعدتين رقم ١ ورقم ٢ من القواعد الذهبية الخاصة بمعاذير السلطات الرسمية. المرء لا يكون أبداً مذنباً هو ذاته، فالآخرون هم المذنبون.

والآن تأتي الأقوال المألوفة:

«كان الزميل الذي يعالج المسألة قد قعد إلى المائدة لتوه...»، واليوم هو يوم عطلته...»، جلسة لمجلس المؤسسة...» ولديه خدمة خارجية «وثمة زميل مريض...». وهناك اثنان في إجازة...»، «ويتم توجيه الحدث إلى موقع خدمة آخر...».

وكل هذه معاذير ربما تصح أيضاً، ولكن صاحب الحكم الغاضب يسمعها بتواتر مفرط وينتظر طويلاً. وعلى هذا فمن الواجب على المرء أن يحاول صياغة العذرين الأول والثاني، صياغة مختلفة، وبذلك يحرص على إقرار أفضل. ثم إن موظفاً بارعاً حقاً تقبّل كل المعاذير بعبارة مشجعة، إذ قال: «إذاً فلننظر في ذلك - كما يقول المدعو بيكنباور - وقد أنجز هذا كل شيء». ومن الممكن أن ينجح هذا بنصير لكرة القدم، عن هذا الطريق، إلى مزيد من الموافقة.

وثمة إمكانية أخرى للجواب: «الحكم يرجع إلى تاريخ أحدث (وهو يتسم دائماً بشيء من الصعوبة)، كما أن لي مشكلاتي المتعلقة بهذا، في كل مرة، إذاً فدعنا نرى، كلانا، ما الذي طرأ على مسيرته من الاعوجاج...».

حسن جداً! - وينزل الموظف عن منصة مُعالج القضية، إلى مستوى المراجع ذاته.

«آه، فلتنتظر إذاً، لحظة... أجل، هذا يُفترض أن يعني... أنه لا بدّ للمرء أن يكون حسن الاطلاع على المقررات...».

وهذا حسن جداً. وبالطبع فمعالجو القضية يعرفون الحكم بلغة الدواوين، المعقّدة، ذات التحفظات الكثيرة، غير أن هذا الاهتمام وجهلهم الخاص (الذي يمثّلونه متظاهرين به) يجعل مزاج الرجل المعنيّ أقرب إلى المصالحة.

والآن أعرف لماذا استغرقت المسألة، على ما يبدو، كل هذا الوقت. آه، يا لهذه الأحكام والتشريعات! إننا لنتنهّد أيضاً! دائماً شيء جديد، وفي إطار الثقة، هذه الحواسيب... وفي الأسبوع الأخير خسارة شاملة! ومن الممكن والأرجح أن التماسك سقط ضحية لهذه الفوضى. لقد حاولنا، نحن جميعاً، كل شيء بالطبع، موازنة كل الخسائر، ولكن الأرجح أنها نزلت بعدئذٍ في مواضع مختلفة كل الاختلاف. وعلى هذا فالنتيجة سيئة! هل تعلم ما هذا؟ ألديك شيء من الوقت؟ إذاً نعمل هذا الآن معاً!». - وإذاً لكان هذا هو الشيء الأمثل. غير أنه لا يستقيم دائماً، بالطبع، غير أنه يظهر الاستعداد بسبب ضغط الوقت. ثم إن الشكوى من الشبيبة الحالية مقبولة تماماً أيضاً في حالة المتقدمين الأكبر سناً، بالمقترحات. آه، يا عزيزي... لقد رأيت - لقد دسست هذا، وهذا ما أراه، ولكن بثقةٍ مني، والآن، في شيء من التآمر من قبل زميل على زميله:» لدينا متعاونون جدد، جاؤوا من المدرسة مباشرةً... (أو متهمين، ومن يجب إعادة تربيتهم). كلا، لا شيء ضد الشبيبة، فإنهم يريدون أن يتعلموا شيئاً ما، وهذا واضح، واضح، ولكن حين لا يراقب المرء كل

كلمة، عندئذٍ... أنت تفهم، وعلى هذا سأقوم شخصياً...» وما من أحد يلاحظ من عساه عطّل الالتماس. ويعد العذر المتطاول، القليل الحياء، في منتهى السوء.

«ونحن أيضاً لسنا سوى بشر!»، «ونحن لا نستطيع أكثر من أن نعمل» - وإنك لتستطيع أن تشكو وتكلّف نفسك المشقة!» «لقد قلت لك هذا، بلا ريب، ثلاث مرات: هنا لا بدّ لك أن تشغل وقتك بشيء ما، ولمّا...»».

ويستحوذ على المتقدم بالالتماس الغضب، فإنه يعمل أيضاً. غير أنه يفعل شيئاً آخر، ولكن شيئاً من المصاعب يعرقل كل شيء، كلما كان ذلك ممكناً. وذلك أن الغراب لا ينقر عين غراب آخر. ثم إنه يصوّر الآن على أنه غبيّ لمجرد أنه لا يفهم هذا القانون الذي يُضاهي الدودة الشريطية. وقد أثبت حسن بلائه إلى حد بعيد، مع أمثال هذه الأجوبة الصبيانية الوقحة، السؤالُ المضاد، ذو الصوت العالي، والواضح: «أتعرف كيف تضع طبقة رقيقة فوق التصميم كيلا يبدو الصوت عند السماع مضاعَف السرعة؟» (فرع الدعاية)، أو، حين يكون طبيباً: أتُراك ربما تعرف أن خَثَر الأوردة المسبب للانسداد يسبب توسعاً في أوردة الإشارة (Signalvenen)عن طريق إضافة دورات موازنة؟ كلا؟ هذا يثير عجبي فأنت إذاً لا تفهم من ذلك شيئاً، والآن هلاّ شرحت لي، رجاءً، مرة أخرى بوضوح، ما يجب عليّ عمله!» (من: دورات إعادة التدوير في حالة التوسّع الأولي للأوردة) للدكتور فولفغانغ ها خ، ص ١٥).

وأنت تستطيع بثلاث جمل محشوة بالمصطلحات الفنية - أن تقذف على رأس الآخر بشيء من المعرفة من فرع اختصاصك، كي تبيّن له أنك تفهم هذا - ويترتّب عليك أن توضح هذه الأشكال الرسمية من التحفّظ والتقييد!». وذلك أن بضعة تحفّظات وتقييدات من ثروتك اللغوية والمهنية، تقولها موجزة وبصوت عالٍ وبوضوح، يمكنها، في كثير من الأحيان أن تكشف عن تأثير ومفعول. غير أني لا أخفي أن الموظف كثيراً ما يكون في موقع أقوى من موقع الخصم، ويمكنه أن يحمل ضغينة، غير أن الشجاعة الأدبية - حتى بمجرد الكلام - لم تسبّب أذىً قط. وإليك بعض الإشارات من مجالات اختصاصية، ولا بدّ لك بالطبع أن تكون متمكناً من هذه الفروع المهنية. والمسألة تتمثل في لغتك المهنية الخاصة بك، ومثال ذلك البحث في «التكوّن والنشوء» هل تعلم أن إخراج نسخة مطابقة من الفنان ذاته تدخل في صميم الكثير من المناقشات حول التعامل مع تكنولوجيا الأشياء المتناهية في الدقة (nanotechnology)؟. ومن المؤسف أن من الممكن بسهولة فائقة أن ينشأ تصور خاطئ عن النظم التي تُخرج نظماً مطابقة لها، من تلقاء نفسها (selbstreplizierend)، لأن معظمنا لا يعرف إلا نظماً بيولوجية من هذا النوع، ثم نُتبع هذا بصورة آلية تماماً، بقولنا إن النظم التي تكرّر نفسها بنفسها في تكنولوجيا الأشياء المتناهية في الدقة لا بد أن تكون مماثلة لهذه النظم البيولوجية، ومع ذلك فهذا خاطئ كل الخطأ (Faz،11.9.2000).

أو تكون ممن يعملون بصفة موسيقيين في فرقة موسيقية: «هل تعلم كم يبدو وقع النغم في الجملة الموسيقية النهائية ذا نزعة تصالحية وتمثيلية عابثة، وهو الذي تمّ وضعه في صورة إيقاع (Rondo)، وهو يستمد القسم الأكبر من طاقته الحركية من موضوع البيانو الذي دُفع به إلى الأمام بأسلوب الترخيم الوسطي (synkopisch)؟ والحق أن ثمة حادثة عرضية أولى، تنطوي على التضادّ، تبدأ رقيقة وملوّنة، ولكن في نهايتها ينبئ نداء موضوع الترخيم الوسطي، بالبوق، والنفير، عن عودة الفصل الإضافي الأوركسترالي بين لحنين» (من دليل ريكلام الموسيقي إلى الحفلات الموسيقية، يوهان برامز، حفلة موسيقية بالبيانو رقم ١).

وليس من الضروري، بالطبع أن تلقي على رأس الموظف المتذمّر المتكدّر بملاحظة فنية بكل هذا التفصيل - وغير مفهومة على نحو مؤكد، بل تكفي جملة أو جملتان فيهما مصطلحات فنية غير مألوفة. وإذا كنتِ صيدلانية، كان في وسعك أن تقولي: «أنت تقرأ كل يوم نصوص القوانين وتصاريح الدخل الخاصة بالضرائب، وتعرف على الفور ما يعنيه هذا. وقد تم إعلامي بمقدار الميليغرامات في حمض الأسيتيل ساليسيل ومسحوق السيلولوز ونشاء الذرة، إذا كنت تطلب مني الأسبيرين ضد أوجاع الرأس. وهنا أستطيع أن أعلمك. وعلى هذا فما الذي يترتّب عليّ أن أراعيه في التصريح الضريبي؟». إن لكل المهن مفرداتها الفنية الداخلية، لا مثلما يستعمل الناس جميعاً مفردات الهواة التي لا يستطيع غير المختص في هذا المضمار أن يفهمها ببساطة. على أن الموظف وراء كوّته ليس لديه سبب يجعلنا نحس بجهلنا في مضمار

الجهات الرسمية، أو في المضمار الحقوقي. ومن المؤسف أننا لا نريد، على الأغلب، شيئاً ما من المؤسسات، ولا بدّ لنا أن نتقدم بالتماسات تتلاءم مع هذا. ولما كنا نظلّ على الدوام تقريباً في الموقع الأضعف، فإن موظفي الجهات الرسمية قلّما يحمّلون أنفسهم، لدى التعامل مع الجمهور، مشقة إيجاد الأعذار الملائمة للتأجيل، أو هدر الوقت، أو التوقف عن معالجة الأمور.

فإذا كنت أنت نفسك تنتمي إلى فئة هؤلاء الموظفين فلديك بالطبع هذه الذريعة:

«ألا إن هذه الأسئلة الغبيّة، المتماثلة أبداً، لتنهك طاقة الإنسان إنهاكاً! وإنها لتبلغ من المرء أقصى الحدود! وهنا لا يستطيع المرء أن يستريح، أو يسترخي! وهذه المطاليب والأعباء جاثمة على عاتقيه!.

وأنت على حقٍّ، ولكن فلتُدخل في حسبانك أن كل المهن فيها نقطة ضعفها، أي عقب أخيل، إنها نقطة تسبب الألم العصبي، سواء أكان هذا ضغط الوقت، أم فيض المسؤولية، أم المطالبة الدائمة بمتابعة التثقيف (مثلاً: في مضمار الحاسوب والمعلوماتية، ومعلومات وسائل الإعلام الحديثة). لا بد لك من تحقيق التكامل بين ميادين البحث (الرسائل العلمية، وتقنية الأسنان الحديثة). ثم إن الآلات والأدوات الحديثة تقتضي برامج تعليمية لخدمتها والتمكن منها. وفي كل مكان يكون العاملون المهنيون معرَّضين لتوتّر الأعصاب. وعلى هذا فليس هناك مبرر حقوقي للتراتب الهرمي في الجهات الرسمية. وللوقوف موقف المتعاظم من الالتماسات الخاصة بالطلبات.

وفي الآونة الأخيرة باتت توجد معاذير وتبريرات خطية ما عاد يمكن التحقيق فيها وتمحيصها بالنسبة للمواطن العادي. «لقد لاءمنا نظام المحاسبة عندنا مع المطاليب المتزايدة وعدّلناه وفقاً لنظام س ع الجديد. ومن المؤسف أن هذا النظام يرتبط بتأجيلات...» أو يُقال: «... شاعت مع هذا النظام بعض التعبيرات الخاطئة التي توضع بموجب هذا التقرير تحت التصحيح...». فمن عساه ينقّب ويتحرّى في هذا المجال؟ ومن يستطيع أن يُدقق في مثل هذا النظام؟ ومن تُراه صدرت عنه هذه الأخطاء؟ ومن المسؤول؟ لا أحد. ففي معظم الأحيان يكون مثل هذا التقرير آلياً، ولا يحمل توقيعاً.

وبذلك نصل إلى القسم الثالث المحبوب، من قواعد الحياة الذهبية:

١- الظروف هي التي أدت إلى هذا

وهذا هو توجيه الذنب إلى هيئة، أي إلى المبدأ الذي لا سبيل إلى استشفافه في كل بنية. فما هو مجلس الإدارة - أو مجلس المؤسسة - والنقابة - والإدارة، من هؤلاء؟ إنهم لا يكونون قط واحداً، بل هم، دائماً، مجموعة غير محددة بدقة. فمن يكون مجلس الإدارة؟ أما الناس فيعرفون السيد س، والسيد ع، والسيدة ج وآخرين. ولكن من فَصَل في هذه المسائل أو تلك؟ ومن كان معها، ومن كان ضدها؟ فالقرار يأتي من «مجلس الإدارة» وقد أعلن هذا ما أعلن بحكم الأكثرية وتحدث باسم الأكثرية. وعلى هذا فما هو الأكثر راحة والأسهل احتمالاً للمسؤولية بحكم كونه العذر، أو الذريعة: «لقد أمر بهذا الذين هناك، في الأعلى...» ويدفع الواحد منهم عن نفسه كل شيء وهو يهزّ كتفيه هزة

تعبّر عن الأسف. أما هو نفسه فلا يحتاج إلى أن يخترع عذراً، ولا إلى أن يجهد نفسه ليخرج من المأساة! لقد كان الآخرون هم المسؤولون - وهؤلاء في مثل هذه الحالة، في مقام جدّ رفيع ولا يمكن معرفة أسمائهم من حيث كونهم مجموعة، بحيث يستطيع المرء، بهدوء، أن يجعل منهم كبش فداء.

على أن السياسيين يمثلون الاستثناءات في مجالس الأحزاب واجتماعاتها، ثم إن الجوع إلى السلطة، وحب الظهور والحصول على المكان والاعتبار، وغرور استعراض الذات، يتدفّق من انعدام الأسماء وإغفالها، حيال الجمهور. وبذلك يأخذ السياسيّ الذنب على عاتقه معترفاً به - إلا أن الذنب يتحوّل إلى اتهام للخصوم والمناوئين، ويصاغ بحيث يغدو دفاعاً عن سلوكه الخاص. لقد كانت الأحوال القائمة هي المتسببة! وحتى إذا قصر السياسيّ نفسه فقد كان المسببون الحقيقيون يتمثلون في الظروف!

وبذلك يصل المرء، بالطيران، إلى قمة قواعد الحياة الذهبية: الظروف هي التي أدّت إلى ذلك! وكلما كان وضع ذلك على مستوى أعلى كان أكثر امتناعاً على التغلغل بالنظر فيه، وكان الإمساك به أكثر استحالة.

فهل هذا أسطوريّ؟

وهذا النظام يؤدي وظيفته في العالم كله!

لأن العالم يدخل، مساءً بعد مساء، ملوناً وواضحاً جلياً، إلى حجرتنا. هنالك يرى المرء موتاً كبيراً بين الأسماك والطير، على الشاطئ، فلماذا؟ لأن ناقلة بترول من البلد تسرَّب منها البترول.

لماذا؟ هل صرّفه بحار في البحر، بأمر من القبطان؟

كلاً، بل كان هناك موضع ضعيف في السفينة.

ولماذا يكون هناك موضع ضعيف. ولمن تعود السفينة. لشركة الملاحة ب. ألم تكن السفينة تحظى بالصيانة؟ بلى! والحق أنها قديمة ولكنها كانت تُجرى لها أعمال الصيانة.

لماذا لم يكن هناك سفينة أحدث؟ لأن صاحب الشركة، والبلاد، لا يتوافر لديهما المال.

لماذا لا يتوافر لديهما المال؟ لأن الأغنياء لا يدفعون لصاحب الشركة ما يكفي.

ولكن لماذا لا يدفع الأغنياء في البلاد، والآخرون في العالم أيضاً؟ لأن... ولأن... ولأن... والآن تستطيع أن تروح وتجيء في عبث الأطفال هذا البسيط: فكلٌّ من الناس له عذره. وما من أحد اقترف ذنباً، لقد كان المذنب هو الآخرون... والظروف. وما التقطه ببصره ولدنا الصغير في مرحلة مبكرة حقاً، في الأسرة، ومارسه بعد ذلك وواصل تطويره، في المدرسة - هذا كله تحوّل إلى شبكة رقيقة كبيرة عَلِقْنا بها نحن جميعاً، بدرجة تقلّ أو تكثر.

٢- معاذير سائقي السيارات

لقد لاحظت في هذه الأثناء أنه لا بد للمرء، في حالة الحديث عن المعاذير أن يعبّئ لحظة الإذهال في المقام الأول تماماً. وتستطيع أن تقول أيضاً: «فلان (أو فلانة) حاضرا البديهة... فهما يجدان على

الدوام مخرجاً أو عذراً، ولا يحيّرهما شيء...» وهذه اعترافات لا يُقصد بها في الحقيقة إلا الازدراء أو الاستنكار - بل هي في الأساس اعترافات خفيّة، تصدر على الأغلب، عن أناس لا يقدرون على هذا بأنفسهم. ولا بدّ، بالطبع من افتراض درجة معيَّنة للرُّجحان.

ويوجد تحت تصرف سائقي السيارات احتياطي هائل من المعاذير، جاهز للاستعمال، عندما يُضبطون متلبّسين بخطيئة من أخطاء المرور. ويمكن أن تكون الحقيقة على الشكل التالي: «لم أرَ اللون الأحمر في إشارة المرور، لأن الشمس بَهَرت نظري».

«كانت لافتة الخط الحديدي في الشارع محجوبة عني بالشاحنة، وكان يوجد في الثغرة الواقعة بين سيارتين واقفتين، من المكان ما يكفي وأنا لم أتوجّه صوب الراكب المواجه لي».

«عداد السرعة عندي كان يشير إلى الخمسين، ولا أكثر من ذلك!»

ولكن هذه الحقائق لا تحمي، في كثير من الأحيان، من تحميل المرء المسؤولية لأنه لا يستطيع أن يثبت شيئاً ما. ومع ذلك فعندما يُواجَه المرء بالشرطة يكون من الصعب أيضاً، على وجه الخصوص أن تتوافر تفسيرات للمخالفات اليسيرة التي تسبّب فيها هذا بالفعل. فالحقائق قابلة للقياس والمراجعة والتدقيق. على أن الخوف من فقدان شهادة القيادة أو الإحالة إلى الصندوق، يستقر في الأعماق بالطبع. ثمّ إنَّ الاعتذار بشرب «قدح صغير من البيرة» يتحول عن طريق الاختبار بالنفخ في أنبوبة، وبسرعة بالغة إلى أكذوبة فاحشة.

وفي بعض الأحيان لا تحمي الحقيقة أيضاً، بالطبع، من سوء الظن من ناحية الجهات الرسمية. وقد حدّثني ربٌّ لعائلة أنه كان مع أطفاله في رحلة عائلية مقرونة بالتصوير. وكانت الفيلة في منطقتها أليفة مكبوحة الجماح، ولكن حين اقترب أحدها بعد ذلك من السيارة الواقفة، كثيراً، وهلّل الأطفال وصرخوا، لأن الفيل وضع خرطومه على سقف السيارة، فضّل أن يتابع مسيرته بحذر.

وكان كالمذهول حين استوقفه بعد مغادرة المنطقة، شرطيّ وسأله من أين جاء الغؤور (الانضغاط) العميق على سطح سيارته. «ماذا، غؤور؟ هذا شيء لم ألاحظه أبداً في غمرة الصخب والانفعال - وذلك أن الفيل وضع خرطومه على السيارة!» أما الشرطي فقد بدا له هذا الجواب ذروة الخداع والتلفيق. ولم يكن للسائق بدٌّ من الانطلاق إلى اختبار شرب الكحول، ولم يكن يشرب شيئاً.

وسمعت قصة ممتعة منذ وقت غير بعيد في أخبار الكنائس. وذلك أن قسيساً في أقصى البلاد في إسبانيا يتولى أمر عدد من الدوائر الكنسية كان عليه أن يموّنها وحده في يوم الأحد، إذْ ما عادت القرى الصغيرة تستطيع، في كثير من الأحيان، أن تتحمل نفقات دائرة كنيسة عائدة لقسيس، استوقفته مفرزة من رجال شرطة المرور، وجاءت نتيجة اختبار الكحول في غير صالحه، ودافع الرجل الطيب عن نفسه بلسان طلق. «ست مرات هكتو ليتر للقداس في يوم الأحد، وخمر القداس دائماً على معدة خالية - وهذا شيء لا يستطيع أتقى الرجال أن يتحمّله من دون عواقب» ولم يُصرّح بما إذا كان حماة القانون سمحوا بذلك وتجاوزوا عنه أم تصرّفوا معه بصرامة تبعاً للتعليمات.

ولكن في بعض الأحيان يمكن أن يكون للعذر أثر مسعِف، وهو امتحان القيادة: فقد توقّف تلميذ في القيادة قبيل الموقف الأخير للحافلة الكهربائية. وسُئل: «لماذا تتوقف هنا؟»

«هنا ينزل جابي الحافلة في كثير من الأحيان ويذهب إلى المقهى، في الجانب الآخر من الشارع لتناول الإفطار. وقد لاحظت هذا مراراً، وعندما يسبق المرء الحافلة، ببساطة يكون بالنتيجة أوّل من يُرى حين يكون في الشارع» ونجح التلميذ في الامتحان.

فقد كان العذر هنا قابلاً للتصديق وممكناً. إذْ كان من الممكن، في حالة المرور والتخطّي، أن توجد، على وجه الإطلاق، مواضع لا يلاحظ المرء فيها الركاب الذين يزمعون ركوب الحافلة، ولكن بما أن تلميذ القيادة واصل سيره بعد الوقفة القصيرة، من دون أن يلوي على شيء، فقد فاتت لحظة الشكّ والتدقيق آخر الأمر، من قبل المعلم.

وأرجو أن تلاحظ: في المواقف الخاصة بقواعد المرور يكون ما ينطوي على الذكاء الأكبر في الغالب ألا يحوك المرء شبكاتٍ من الأكاذيب، ولا سيما حين يكون هناك آخرون قد مسّهم ذلك وآذاهم. وهنا أيضاً لا أجرؤ على تقديم معاذير، إذْ يمكن أن تنطوي على عواقب وخيمة من الوجهة القانونية والمالية. ومن دون أن نقترب كثيراً من أحد الاختصاصات تعدُّ الثغرات وإمكانات تحريف دلالات القانون وَ لَيِّها في حالة التأمينات أو المؤسسات الحقوقية، من الأمور التي يمكن سَبر غورها بالبصر بالنسبة لغير المختص، وكثيراً ما تكون ذات صفة جنائية - وذلك، على وجه الخصوص، عندما تتصل المسألة بالمال. وهذا شيء

يستطيع المرء أن يخرجه من إطار «المعاذير». وعلى هذا فلدينا فئة سائقي السيارات الذين يتمثل هدفهم الواضح الصريح، من المعاذير، في تبرئة أنفسهم من كل ذنب ومسؤولية كيلا يفقدوا شهادة القيادة الثمينة. على أن مما يكفي أيضاً أن تسحب الشهادة من السائق لبعض الوقت، كما أن الغرامة المالية يمكن أن يكون لها مفعول لا يستهان به.

ومن أجل ذلك تعدُّ محاولات التبرير اليائسة، ولا سيما في حالة الحوادث الفادحة جسيمة إلى حدٍّ بعيد، لأنها تمسُّ الأرواح أو تتعرض الأرواح من جرّائها للخطر، وكثير من المهن يعتمد على السيارة.

وفي مقابل ذلك تُعَدُّ المعاذير التي تُستَخدَم لقيادة السيارة في وسائل النقل العامة من دون شهادةِ قيادةٍ مهلهلةً وغير قابلة للتصديق إلى حدٍّ بعيد.

٣ - معاذير القيادة من دون شهادة

وفي الحقيقة ليس هناك أحد يضطر إلى استخدام الباص أو الحافلة دون أن يدفع ثمن التذكرة، إذ يستطيع، على الأغلب، أن يمشي.

ولكن هنا على وجه الخصوص يعدُّ من المستحسن جداً أن يقفز المرء إلى المركبة و - «لن يكون هناك تفتيش»، وسيمارس محاولة عدم التعرّض للأخطار. أما عند الأطفال والشباب فكثيراً ما يكون السبب هو الرغبة في اختبار الجرأة: «أراهن على أنك لا تثق بمقدرتك على هذا ...؟»، ثم إن التبرير المحبوب وهو: «لقد قال الفتى ألكسي إنه ينبغي لي أن أفعل هذا، فأنا ما زلت غير معرّضٍ للعقوبة»، لا يجدي إلا قليلاً

جداً. وذلك أن «عقلية الأطفال البريئة» تعلم بدقة كاملة، أنَّ الطفل يعرّض نفسه من جرّاء ذلك للعقوبة. ومن المؤسف أنه لا بدّ للمرء في كثير من الأحيان أن يتمرّن ويتعلّم من خلال كل ثغرات القانون الصغيرة الدقيقة.

أما الجولة التي تجري محاولتها في كثير من الأحيان، والمحبوبة كثيراً، وهي «جولة: لا أستطيع أن أفهم» فما عادت تجدي أيضاً، إذْ إنّ كل غريب يعرف، من موطنه، أنه لا بُدّ للمرء أن يدفع شيئاً ما مقابل نقله في وسائل النقل، وكل امرئ يحصل على أبسط القواعد أيضاً في المحيط الجديد بطريق القول أو الشرح أو البيان.

وأما الحجة الرئيسية، وهي قول الواحد منهم: «أنا أستطيع أن أوفّر المال»، فكثيراً ما تقترن بنوع من الشعور المستعذب برغبة المرء في العبث والتعرُّض للضبط متلبساً. أما فيض المعاذير فيستطيع كل مفتش تقريباً أن يدحضه دونما جهد، بل هناك مجموعات من أغرب التبريرات ونكات الصحف تُستخدم في كل متغيّرات هذه الأجوبة، المرة بعد الأخرى.

فحيناً يقول أحدهم إنه يريد الذهاب إلى البيت»على وجه الخصوص لأنه اكتشف أنه نسي محفظة نقوده هناك.

ويقول آخر: «أردت أن أرى وأنا لدى الباب هل تقعد في العربة واحدة من معارفي، وإذا القطار ينطلق» وآخر: كان جهاز صرف التذاكر مكسوراً، مع الأسف، ولم يكن لديّ قطع نقدية صغيرة...».

وآخر: «لا بدّ لي من العودة إلى البيت لأن ولدي ليس معه مفتاح...».

«لقد ابتلع صغيري تذكرة الركوب كي يغيظني...».

«سقطت تذكرة الركوب من يدي عند الجهاز الآلي، وذهبت مع الريح...».

و: «لا بُدَّ أن أحداً خطفها من جيب معطفي، إذ كان يقف بضعة رجال عند الجهاز الآلي».

«كانت تذكرة ركوبي مع صديقي الذي نزل عند الموقف السابق، ونسي أن يعطيني إياها».

وكان على زميل لي أن يقوم مراراً برحلات طويلة بالخط الحديدي، على صعيد المهنة، وعلى الصعيد الخصوصي، وبعد بضع «رحلات تجريبية» كان قد بحث على وجه الدقة متى يصعد المفتشون أو يتبدّلون، ومتى يبدؤون ومتى ينتهون - وما هي محطات التبديل المواتية لتبديل العربة، وكان بارعاً في صياغة الكلام جداً، وكان يتصرف تبعاً لمجموع الركاب، فيورِّط السيدات أو السادة من المفتشين في حوار، أو يظلّ بعد ذلك غير مرئيّ بالقياس إليهم حتى لحظة النزول من العربة - ولم يكن يستعمل الثغرة الجنائية المتمثلة في الاحتباس في المرحاض» إلا نادراً، وكان يروي ألوان براعته في الكذب دائماً ليسرّنا بها جميعاً.

وقال «إنه لم يُضبَط أبداً.

أم لعلّ هذا كان ذريعة أو عُذراً؟

والمعاذير تربو وتستفحل في كلّ المهن تقريباً! غير أنها تستفحل في المزالق نفسها التي سبق المسير فيها، ولكنها تؤدي وظيفتها بصورة آلية تقريباً.

٤ - معاذير سكرتيرات الأطباء

وحتى إذا كانت الصورة السامية «للملائكة البيض» تقف على أرضية رّجْراجة أو مهشَّمة، فإن المساعدات والمتعاونات في ساعات المقابلة وحجرات الانتظار هُنَّ اللواتي يحفظن هذه الصورة.

وحتى عندما يكون المرء مطلوباً في وقت محدّد فلا بُدَّ له أن ينتظر - بصفته مريضاً. فالطبيب لا ينتظرنا أبداً.

«لقد لبث وقتاً طويلاً للغاية مشغولاً في غرفة العمليات».

«من الممكن أن تطرأ اليوم حالة اضطرارية مستعجلة، فيما بين المواعيد».

«لقد احتاج المريض السابق إلى مشاورة أطول - احتاج إلى ساعة كاملة بدلاً من ربع ساعة!».

وكل سكرتيرات الأطباء يَقُلنَ الشيء ذاته دائماً.

«لا بد للطبيب أن ينجز كل شيء وحده اليوم، فقد أصيب زميله بمرض».

«أصيب الحاسوب بخلل فني، وبسبب ذلك حدث التأخّر، مع الأسف».

وكل هذا يمكن أن يصحّ، بالطبع، ومثلما يمكن، في كل المهن التي تضطر إلى التجاوب مع مواقف مفاجئة لا يمكن التكهّن بها سلفاً، أن يصحّ هذا، يصحّ ذلك هنا أيضاً. ولكن الزائر لا يعرف المسألة على وجه آخر. فالأمر هكذا دائماً، وهو يغدو متكدّر المزاج، كما يسوء ظنه أحياناً.

«ربما أخذته اليوم سِنةٌ من النوم...»، «لابدّ أن المسألة انتهت، مرة بعد أخرى، إلى حديث هاتفي لا نهاية له، كما حدث قبيل وقت قريب مع التأمين على السيارات...»، «والأرجح أنه حين يتوقف للاستراحة في المقهى...»، «ونريد نحن جميعاً بلا ريب، أن نرى، مقدار ما لديه من العمل! وفي هذه الأثناء يضطر كثيرون إلى العمل أيضاً بلا ريب..»

وفي أحد الأركان من اللافتة التي كتب عليها لقب الدكتور يستكنّ، بلا ريب، عند كل الملائكة ذوات الثياب البيض، الشيء «الخصوصي»، التفوّق، واستحالة الاستغناء عنه، وربما كان هناك أيضاً قدر غير قليل من الناس «أنا أساعد الجماعة - إذْ انهم يعتمدون عليّ».

أما في حالة الجهات والدوائر الرسمية التي تصدُّ المتقدمين بالالتماسات، فيكون انفجار الناس أسهل، ويكون تكدُّر المزاج أحرى أن يبحث لنفسه عن مُتَنَفَّس. أما عند الطبيب فلا يحدث هذا إلا في القليل النادر. ويكون المراجع هو الجانب الأضعف دائماً لأنه يلتمس الشيء النفيس: يلتمس الشفاء والعَوْن. وهنا يستوي في اللحظة الراهنة أن تكون الخزينة هي التي تدفع أو يكون المريض في العيادة الخاصة هو الذي يدفع.

أما المعاذير المألوفة التالية: «فاته القطار، أخذه النوم، اختناق في حركة المرور» فلا تستعملها سكرتيرة الطبيب المدرّبة، وفي مقابل ذلك يسرُّها كثيراً أن تستعمل «العذر المكشوف لكل ذي عينين».

ومعظم السيدات الودودات يجرين مسرعاتٍ هنا وهناك، يحملن أوراقاً مرفقة إلى حجرات مختلفة، ويأتين بأوراق أخرى، ويتحدّثن بالهاتف، ويبحثن في الخزائن ذات الأبواب الدوّارة عن ملفات، ويظهرن للمُراجع المنتظر قدر اجتهادهنّ في إنجاز كل شيء على وجه السرعة: «نحن بالفعل لا نكون إلا في حالة عدْوٍ دائم».

وعندما يسمع المرء المحادثات الهاتفية أيضاً، إذْ يُقال: «كلا، الأسابيع الثلاثة الأولى تظل كل الساعات فيها مشغولة بكثافة - كلا، في الثالثة والعشرين يوجد لدى الدكتور موعد مع المؤتمر في سويسرا، محاضرتان - أجل، إذاً نهاية الشهر التالي يوجد لديّ شيء آخر أيضاً... مع الأسف!» ألا إن مَنْ لا يتأثّر هنا وينتظر مستسلماً لأنّ هذا الإنسان العامل، «السوبر مان» ما زال لديه بعض الوقت للواحد منهم - فليس لديه أي قدرٍ من الفهم.

وهنا يُمارَس عذر الطبيب المعكوس: «أنا كبير جداً وأنت صغير جداً، بروح طيبة مبنية على المودة، ويُقْبَل العذر من قبل كل الأطراف. وحين أعريتُ ذات مرة، بعد ساعة من تقليب المجلات المصوّرة في حجرة الانتظار الملأى بالناس، عن استيائي، همست إليَّ سكرتيرة الطبيب الشابة، وهي مسرورة: «طبيبنا أحبُّ ما يكون إليه العمل حين تكون حجرة الانتظار ملأى بالناس. هنالك يكون مزاجه أفضل مزاج. وفي حالة التحليق الأقصى» وبالفعل ظهر ذلك الذي كنا ننتظره، مبتهجاً مستريحاً، لدى الباب، ورأى، بنظرةٍ منه، كل المقاعد مشغولة، وأشار إلى المريض التالي بالدخول، وهو يبتسم.

ولست أدري أكان هذا اعتذاراً من سكرتيرة الطبيب. ولئن كان الأمر كذلك فقد كان اعتذاراً موفقاً! وذلك أن المرء حين يلقى الطبيب الحسن المزاج يكون أكثر أملاً منه حين يلقى طبيباً مثقلاً بالأعباء على نحوٍ شامل. وقد يكون من المسائل التي تستحق التقدير والنظر مسألة هل يصل الطبيب بمرضاه في النهاية إلى مزاج إيجابيّ. «لقد استغرقت المسألة وقتاً أطول قليلاً، غير أنك ظفرت اليوم بنهار طيب! وما من شكٍّ في أن الطبيب يتوافر لديه الوقت من أجلك! لقد كان لدينا بالأمس عجلة محمومة للغاية، وما كان في وسعنا عندئذٍ أن نثوب إلى رشدنا أبداً».

أو:

«الطبيب اليوم حاضر هنا، في أول يوم، من جديد. ففي الأسبوع الأخير كان لديه مؤتمر كبير في الولايات المتحدة، حيث استمع إلى محاضرات فائقة الأهمية - يالها من كفاءات! لقد ألقى محاضرة أيضاً، وإن ما يبحث فيه الناس في هذه الأيام لرائع!

أو: «لقد انطلق العمل الآن على وجهه الصحيح تماماً، آه، فبعد ثلاثة أسابيع من الإجازة يريد المرء أن يعود إلى العمل من جديد أيضاً، وقد استجَمَّ الطبيب أيَّما استجمام، وهو مترع بالهمة ومضاء العزيمة!»

وهذه المتغيّرات من الأعذار، في حالة الانتظار الطويل تمثل المعذرة التي هي أفضل من الحقيقة غير المستحبة:

«لقد أفلت الشيطان من عقاله اليوم، من جديد، مريض بعد الآخر... ونحن ما عُدنا نثوب إلى رشدنا ووعينا أبداً، منذ الساعة السابعة صباحاً! ولا نعرف أين بات موقع رأسنا!». وحين يكون مزاجنا

على هذه الصورة، هل يفترض بنا عندئذٍ أن نتقبل حالة المرض والتشخيص بأشعة إكس - ووصف الأقراص من أجل الآلام ونحن مؤمنون إيماناً أعمى؟ لا بدّ للمريض أن يتحمّل الانتظار، من أجل المزايا الأخرى، وسيكون العذر الإيجابي الصغير عندئذٍ شيئاً آخر، يختلف عن الاعتذارات النموذجية المعتادة.

٥ - معاذير القائمين على الخدمة

وهذا رأسمال لا ينضب مَعينُه ولا نهاية له من المعاذير الجريئة إلى الحد الجنوني، من أجل حجب الأخطاء أو الحيلولة دون حدوثها. فإذا وُفِّق المرء إلى عرض هذه الأخطاء ذاتها في صورة خدمات ودّية للزبائن اقترب المرء من صورة الدجل والخداع الكبرى التي اقترنت بالكذّاب المشهور مُنشهاوزنٍ، وكان هذا يكذب أفحش الكذب على نحو ساحر جذّاب، حتى إن المستمعين المذهولين «لتَنعقد ألسنتهم من المفاجأة والدهشة»، وكذلك كان الجندي الطيب، شفايك أنموذجاً في المكر والنصب والاحتيال والخداع، من الطراز المحنّك الغريب.

كان منشهاوزنٍ يتطاول إلى الأعلى تطاوُل العمالقة حتى إن المرء لا يعود في وسعه أن يناوله الماء.

وكان شفايك يتغابى، نازلاً بنفسه بجرأة، إلى دَرْكٍ يبلغ منه أنه لا يعود في وسع أحد أن يلحق به الأذى. وذلك عملاً بشعار: عبثاً يُكافح الغباء، حتى ولو كافحته الآلهة. ولذلك فهو سلاح يُفترض في المرء أن يتعهّده بالرعاية.

وكل مِهَن أداء الخدمة المتخصصة في شيء معيَّن لا نقدر عليه، لديها على الدوام عذر جاهز لأنها تستعمله على الدوام: اللحامون، وعمال الزجاج، والدّهانون، وعمال التركيب، وميكانيكيّو التدفئة، والكهربائيّون، ومؤسسات التنظيف وورشات التنجيد، ومؤسسات التكسي.

وهنا أيضاً توجد، بالطبع، المجاملات النموذجية التقليدية:

المرض والإجازة، والزميل ظلّ بعيداً، ومن الصعوبة بمكان حصول المرء على قوة عاملة فنية. وفي حالة الرحلات تقع الملامة على المعوِّقات المألوفة في حركة المواصلات واختناقات المرور. وهذا أمر مألوف كله بلا ريب، وهناك بالطبع، العذر الذي يستحيل التدقيق فيه وتمحيصه مطلقاً: «في حالة الزبون التي وردت قبل ذلك استغرقت المسألة وقتاً بالغ الطول إذ تبيّن أن...» وسيكون كثيراً مجرّد قولنا بالهاتف إن هذا يمكن أن يكون بعد بضع دقائق»، فإذا تمَّ الاتصال الهاتفي حوالي الظهر فهذا يعني أن الرجل المعنيّ ليس بقادم على الإطلاق.

ولكن هنا أيضاً: هذه المهن اليدوية ذات ضرورة مطلقة! إذا لم تصل التدفئة بالغاز في القبو إلينا، وكان جهاز جَلْيِ أوائل الطبخ مترعاً بالرغوة، والهاتف لا يؤدي وظيفته ببساطة وكانت قطرات الماء ترشح من المسكن الذي في الأعلى، وسقف الحجرة مُبتلٌّ، والمؤجِّرون يتعذَّر الوصول إليهم - فماذا ينبغي للمرء أن يصنع في كل هذه الحالات؟ وما كل فرد خبير وبارع فيما يتعلّق بالإصلاحات.

وعلى هذا فالمرء يكون ممتناً على الأغلب، ويَصبِرّ على الشيء بسمِّه وناره إذا جاءت المعونة المنتظرة آخر الأمر.

على أن ما يعدّ غير مستحبٍّ على وجه الخصوص أن يهتف المرء إلى المؤسسات التي تعرض خدمات في النهار والليل. «الاتصال بالهاتف على مدار الساعة - نأتي حالاً!». وفي الساعة السابعة صباحاً يقول المجيب على الاتصال الهاتفي إنه ينبغي على المرء في الحالات المُلِحَّة المستعجلة أن يختار الرقم السهل الاستعمال، ويقول الصوت بلهجة المودَّة إن صاحب الطلب سيُهتفُ إليه في أقرب وقت ممكن، ويظل الصوت يقول هذا طوال النهار، وتبقى الحالة على ما هي عليه.

وعندما يظهر مع ذلك ما هو منتظر بشوق، مع عربة التصليح والحقيبة السوداء الثقيلة هنالك تفتقد البراغي (مسامير القلاووظ) الضرورية بالذات، أو تمسُّ الحاجة إلى صفحة لَصْقٍ كبيرة خصوصية، لأن الصمام ذو علامة تجارية غير مألوفة. ولكن لا بدّ من أن يُطلَبَ هذا طلباً أوّل الأمر. ولما كان مقر المؤسسة ليس خارج المدينة، فقد كان من الممكن أن ينتهي هذا آخر الأمر إلى... ولا يستمع القوم على الإطلاق، ويبتلعون كلمات السخط والغضب، إذ لا يّهُمُّ سوى شيء واحد:» متى تنجز هذا؟»

وبالطبع فقد استقرّت هنا أيضاً معاذير مقنعة يطلق عليها أيضاً اسم المشاورة الودّية مع الزبون.

«إذاً فلنتحدّث بصدق - في الحقيقة لا تستأهل المسألة إصلاح الباب الحديدي الدرّاج، إذ تقادم عهده تماماً وعلاه الصدأ، وسوف يتولاّه الغيظ والانزعاج عمّا قريب من جديد. ولدينا خبرة جيدة جداً في الأبواب الحديدية الدرّاجة (Elektro-XX) التي نستطيع أن نعرضها عليك بسعر جدٍّ مناسب، لأن الطلب كبير جداً!»، أو:

«هذا شيء لا وجود له أبداً! ماذا أدخل سَلَفُنا هنا؟ المأخذ الكهربائي هنا لا يجوز قبوله على الإطلاقّ هنا تستطيع أن تتحدث عن السعادة، إذْ لمّا يحدث شيء بعد! أوَ هذا أيضاً! ثم إنّ الجدار الخلفي الظَّهْريّ للثلاجة فيه من الدفء فوق ما ينبغي، وعلى نحو شامل! ومثل هذا يعدّ اليوم محظوراً حظراً صارماً!»

وبعد هنيهة ينخفض صوتك تماماً، ويعتريك الخوف. إذ حدث هنا شيء ما بالفعل. لا تدفعوا تأميناً! لا بدّ للرجل أن يعرف هذا بلا ريب، فهو رجل مختص!

وهل يصحّ هذا تماماً يا تُرى...؟

ولكن استبدال كلٍّ من قطبي الخلل الذي لا يستطيع المرء أن يصلحه أو لا يريد، بالقطب الآخر، والتوجّه نحو كسب جديد، يمثل بالطبع المعذرة، مع نقطة جوهرية فوقها.

وهذه الطريقة تؤدي وظيفتها في كثير جداً من الأحيان، وعلى نحوٍ جيدٍ جداً!

وهنا لا يستطيع المرء ممارسة النزاع بالكلام، وينسحب من القضية بتعبيرات بارعة أو مذهلة. وذلك أننا لا يترتّب علينا أن نمحو ذنباً خاصّاً بنا، أو تقصيراً شخصياً - وإنما نواجه اهتراء الأشياء التي لا نفهم شيئاً منها على الأغلب! - فهي تطرح عَرْضَها على نحوٍ مقنع.

ثم إن ثمن الإصلاح يكاد يصل إلى مستوى ثمن الإنشاء الجديد!

ثم تتوافر لديك الراحة إلى أجل طويل، من جديد! والكفالة. أما الطراز فلدينا منه مخزون، وهذا شيء يمكن عمله غداً، ومع قطع التبديل... فأنت تعلم بالطبع، أن مواعيد التوريد في هذه الأيام...»

ومنْ يورد كل هذه الحجج ببراعة يقنع الزبائن في نهاية الأمر، وأما الشك الذي يفترسنا بهدوء فلا يأتي له دور للإدلاء بكلمته: الجهاز مازال الجهاز بلا ريب جيداً تماماً رغم تقادم الزمن... ولم يكن قديماً إلى هذا الحد على الإطلاق...

أما سليل بارون الأكاذيب، منشهاوزن، فقد تكيّف مع الزمن، فهو لا يقعد على قذيفة المدفعية ليباغت الخصم في المعسكر المعادي، كلاّ! بل يعلن أن الموجود إنما هو من العمل غير القانوني، أو نتاج من سَقَطِ المتاع عائد إلى أمس الأول، ويباغت مالكه باتفاقية شراء لطلب جديد.

والمادة الجديدة، والآلية الجديدة، والتركيب الجديد أفضل بالطبع إلى حد بعيد - أما النماذج التي طرأ عليها التقادم فما عادت تساوي شيئاً. وهذا العذر الرائع والمُجنَّح نسمعه في كل يوم.

ومن السهل إلى حدٍّ بعيد أن نميل إلى تصديقه، إذ إنّه يبرِّر مشترياتنا المعقولة واللامعقولة.

وهذه، كما قلنا، هي سيدة المعاذير مع اقترانها بلحظة التألُّق.

أما معاذير شفايك الطيب فليست بهذا القدر من الفعالية، ولا بذلك القَدْر من الإقناع والتأثير.

وذلك أن متغيرات شفايك أقرب إلى أن تذهب في اتجاه قول القائل: «أنا امرؤٌ بالغ الضآلة والضعف، وربما كنت أيضاً أكثر غباءً، وأنا في الحقيقة جدير بأن يرثيَ المرء لحالي» - وليس هذا من الوجهة المادية بالطبع. كلا، لقد وَلَّت أيام السمكريّ أو مُركب الأرضية الخشبية، المُعوزين. على أن هذا يبدو قليل المقدرة على الإقناع في حالة المنزل الجميل المشيَّد لعائلة واحدة، مع الحديقة، وسيارتين.

كلا إن الواحد منهم لكلب مسكين! إذ لا يحظى بأجير أو متدرِّب، فهؤلاء لا يريدون أن يعملوا. وفي حالة وجود شريك محتمل يضطر المرء إلى الكثير من تقليب الأوراق، وهنالك لا يتبقى شيء بعدُ، على الرغم من أن المرء يكدح من الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة. ولكن هذا شيء ما عاد يريده أحد في هذه الأيام، واعجباً، هؤلاء المتمتعون بمساندة العاطلين عن العمل يفضلون الاستجمام وقضاء أيام جميلة في ميورقة، فهناك من المال ما يعادل أجر العمل! وهذا هو الظلم بعينه! فالقوم يهدرون المال على الكسالى المتعطلين! ويا لَكثرةِ ما يحصل هؤلاء عليه من معونة اجتماعية.

وهذا الموضوع لا يجد نهاية له، لأن الواحد منهم يمكن أن ينفعل انفعالاً بالغاً بصدد الأحوال السيئة إلى حدٍّ صارخ.

وفي كثير من الأحيان يصطدم المرء في هذا الصدد بزبائن متعاطفين. وهو يهيّء قاعدة للثقة في قولين هما: «هذا في الحقيقة - وبلا ريب، إنسان لطيف للغاية، وليس بالغبيّ أبداً!». وبهذا التزلُّف الثقيل ذي الطبيعة السليمة يحسَبُ المرء أنه يقتنص ذروة الغيظ والمآخذ

لدى الزبون، وهو الأمر الذي يصيب نجاحاً في كثير من الأحيان. وفي الحقيقة لا يكون المرء إلا الغبيّ الذي ينهك طاقاته مرة بعد مرة... وفيم يفعل هذا؟ إنه لا بدّ للمرء أن يقرَّ عيناً بأن هذا سيأتي أيضاً، حتماً، ولن يدع دكانه مغلقاً.

وهذا الجنون عند شفايك النشيط يُمارس على وجه الخصوص من قبل كبارِ السنّ. أما الأحدث سناً فهم أقرب إلى السرعة والنباهة والبرود، ويتجه تفكيرهم في هذا المقام نحو السيارة الرياضية التي يريدون شراءها، أو إلى أقرب حفلة.

٦ - معاذير ورشات السيارات

ومن الفئات الأخرى العاملة في أداء الخدمات، ورشات إصلاح السيارات. وهنا يكون لمحاور الثقل موقع مختلف.

وفي أغلب الأحيان تكون ورشة الإصلاح الخاصة بصاحب السيارة لدى المؤسسة التي اشترى منها سيارته.

أما المعاذير الخاصة بمواعيد التسليم فمعروفة ومألوفة بلا ريب: لقد تأخر كل شيء لأسباب يتعذر التحقيق فيها، ولكن يوجد الآن لدى القائمين بالإصلاح، السيارة، ومواعيد التفقد والتفتيش ومواعيد العناية والصيانة. وبالطبع فإن لكل واحدٍ منهم معلّمه أو رئيس ورشته، أو ميكانيكيُّه، الذي يستطيع أن يُرجئ المواعيد قليلاً - وهو على كل حال أكثر مواتاةً من السيدة الحسناء عند الحاسوب التي لا تعرف أحداً، والتي توزع مواعيد التصليح حسب الدور.

ولكن السيارة الآن غير منتهية في الموعد المتّفق عليه، والزبون غاضب، فقد كان يعتمد عليها، وأمامه رحلة طويلة في اليوم التالي (وليس كل المؤسسات تضع في أمثال هذه الحالات، على الفور، سيارة خاصة تابعة للمؤسسة تحت تصرف الزبون).

ويقترب رئيس خدمة الزبائن بخطوة ثقيلة.

«أجل - لقد فحصنا وأنجزنا كل ما رَدَدْتَه على أنه غير مقبول، وكل ما كان ضرورياً فنحن نعرف سيارتك، يا سيد مولر، ولكن المعلِّم لاحظ أثناء انطلاقة التجربة أن ثمة شيئاً ليس على ما يرام فيما يتصل بالتعشيقة (الدبرياج) - وقُمنا برحلة تجريبية أخرى - وكانت النتيجة هي ذاتها مرة أخرى. وها نحن أولاء فضّلنا وضع كل مصادر الخطأ الممكنة - تحت المجهر مرة أخرى، بدقة - وقد استغرق هذا، بالطبع، وقتاً أطول. وكان يحسُن بنا أن نهتف إليك، غير أننا لم نصل إليك...».

وماذا يفترض أن يقول المكلَّف بحجز السيارات بالرافعة. الأمان يتمتّع بالأولوية. ومن أين يُفتَرَض الخلل في التعشيقة؟ فإن صاحب المشروع الناجح يقود السيارة قيادة فائقة البراعة في الحقيقة، غير أنه ليس من ذوي الاطلاع على التقنية.

وهنا أيضاً توجد بعض المتغيّرات في المعاذير.

«لدى الاختبار ظلت الكوابح عالقة ملتصقة - ولم يكن أثرها على ما يرام، ومن الواضح أنها فقدت سائل الكبح (الفرملة) - ولم يكن لنا بدٌّ أن نطلب قطعة تبديل... ولأسباب تتعلق بالأمان كنا أنجزنا عملية

تفقُّدية شاملة، ولم نفرغ من هذه بالأمس... ومن جرّاء العمل الإضافي أصبح التصليح أغلى»وكثيراً ما يتكيّف الزبون مع ما لا سبيل إلى تجنُّبه. فمن الواضح أن هذا الشيء الرهيب الذي لا يستطيع البصر أن يتغلغل فيه ويستشفَّ حقيقته، والذي يسمّونه السيارة، شيء لا يستغنى عنه. على أن المعاذير تكشف نسبة جيدة من المعرفة بالبشر - ففي حالة سائقي سيارات الأجرة (التاكسي) يتعامل القوم بمزيد من الحذر.

ومن الغريب أن انفجارات الغضب والاتهامات من قبل الزبون تتوجّه في كثير من الأحيان ضد المؤسسة الصانعة لطراز السيارة:

«لن أعود أبداً إلى شراء سيارة (XXX). فلقد سئمت من سيارة (YYY)...»، «أما سيارة (ZZZ) فهي تركيبة فاشلة، بصراحة تامة!» غير أن هذا لا يهمّ المؤسسات الكبرى لصناعة السيارات، فهذه المآخذ لا تصل إليهم في الغالب.

وفي حالة أخطاء التركيب ذات الأفاريز والحفر، والتي تشكل خطراً على الحياة، يكون رد فعل المؤسسات التجارية، بلا ريب، فورياً، وهم يصرِّحون بالنقائص والعيوب علانية وعلى مسؤوليتهم الخاصة. ويلاحظ السائق المذهول، في كثير من الأحيان، الآن فحسب، أنه لم يمارس ركوباً في الحقيقة، وهو لا يدري، بل مارس رحلة فوق بحيرة بودينزيه.

٧ - المعاذير في الفنادق ومساكن قضاء الإجازات

ينجم الاستياء والغيظ مباشرة، وعلى الفور، عند الوصول إلى فندق أو إلى مسكن لقضاء الإجازة. وذلك أن ما تَعِدُ به النظرة العامة، وتبشِّر به الإعلانات، يتكشَّف في النقطة النهائية من المسافة عن أنه يمكن أن يكون كل شيء إلاّ أن يكون مغرياً.

وباستثناء ما يحدث في المعارض وفي موسم الرحلات الرئيسي، وفي الأعياد السنوية، (وفي أعياد رأس السنة وفي عيد الفصح،) يستطيع المرء أن يستبدل الفندق حين لا ينسجم ضجيج المبنى، والأعمال في الشارع، والتجهيز غير الكامل، مع العرض، إلا أنّ معظم الناس يسافرون في أيام الهجمة على الرحلات، المرغوب بها، هنالك يكون السفر أصعب، لأن كل مكان يكون مشغولاً، وتكون الأسعار مرتبطة بالموسم، إذ تتصاعد بقوة.

ويكون المرء معرّضاً للمعاذير وألوان التخلُّص بقَدْرٍ أكبر كثيراً، عندما يكون قد وصل إلى مسكن قضاء الإجازة الذي أشيد به أيَّما إشادة - وربما خارج البلاد أيضاً - إذ تكون السيارة ملأى بثلاثة من الأطفال وضعف هذا العدد من الحقائب، من أجل إجازة الاستحمام والسباحة.

غير أن المكان مختلف عما وُعِدوا به ووصفوه، وتوقّعناه.

ومثال ذلك:

«كان شاطئ البحيرة الخاص، قد تمّ تخريبه على وجه الخصوص، وكانت تمديدات الأنابيب وتمديدات مياه المجاري قد وضعت منذ وقت قريب على نحو مفاجئ تماماً، أو كانت الحفّارة تعمل عملها مباشرة إلى جانب المنزل أو فيه، إذ كان يبنى مبنى جانبي إلى جانب منزل «سكينة الغابة» الرعويّ، وكان يجري تجديد الغرف، ورفع السعر من جرَّاء ذلك - ولكن كان هذا بعد طبع المنظر. أو: كان العاملون قد تبدَّلوا أو أضربوا، وكان طباخ جديد قد صمّم لائحة أطعمة أكثر تميّزاً، مع

مراعاة النزلاء الذين يهتمّون بنسبة الحريرات، وأصبح ميدان ألعاب الأطفال، بناء على التماس النزلاء ممكن الاستعمال فيما بين التاسعة والثانية عشرة، وفيما بين الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة، -لبث النزلاء الكثيرو التردّد على المكان وقتاً أطول بسبب اعتلال صحتهم. ولم يكن حمام السونا جاهزاً، مع الأسف. وكانت هناك حالات غياب من جرَّاء موجة نزلات البرد... وفي وسع المرء أن يملأ كتالوجاً بالمعاذير.

لأن معظم هذا إنما هو معاذير!

وقد كان في وسع القوم أن يقوموا بالإبلاغ من قبل - ولو لم توجد فسحة كافية من الوقت.

وفي الداخل، ومن وراء أيدٍ مرفوعة كان العارضون في أيام الإجازات يغمغمون قائلين: الموسم يدوم عشرة أسابيع! ولا بُدَّ أن يكون هذا كافياً عن السنة كلها! ولا نستطيع في الوقت الحاضر أن نقدم حسميّات!».

وإذاً فماذا يوجد من معاذير ربما تقلق من يقضي إجازته؟

وأفضل الأمور دائماً أن يحني ذؤابة الغضب المستشيط بأن يتقدم باقتراح مضادٍّ إيجابي، فقد طالما هرش الناس رؤوسهم فأسرفوا في ذلك!

«نحن نعرض عليكم، تعويضاً متواضعاً لكم، خفضاً في الأسعار بنسبة س٪ إذا وافقتم على ذلك؟» أو:

لقد طلبنا، من أجلك، على سبيل الاحتياط، طلباً في منزل آنا، وسيكون هذا على بعد ١٥٠ مترا، من دون ضجيج أبداً، وحتى بسعر أكثر ملاءمة...» أو:

«نحن لا نجد ما يعزينا عن تأخير البناء - فإذا كان من الممكن أن تتحمل يومين...؟ لقد أكّدوا لنا أنها ليست سوى يومين...» ومن المؤسف أن القوم ينسون أن يضيفوا: يومين - إذا لم تمطر، أو لم يُصَب أحد بمرض - وكان الإسمنت جافاً- وكانت السقالات منقولة.

المعاذير القليلة الحياء: «أجل هذه قوة عُليا...»، «هذا ليس ذنبنا...»، «إنه على كل حال موسم رئيسيّ - ونحن مشغولون على كل الأحوال، وعلى هذا فإذا كنت تفضِّل أن تبحث عن شيء آخر» - يكون طلبك ملغى في الحقيقة. وهناك عروض فائقة الكثرة، وهذا كله يكون أسهل في مجال الناطقين بالألمانية، ففي وسع المرء أن يتفاهم، ويتحدث، ويجادل، ويشكو.

وحين يكون المرء متمكّناً من لغة البلد المضيف يكون هذا منطوياً على مزية كبيرة في حالة المناقشات. وبالطبع فإن المرء يصاب في بعض الأحيان بالذهول من تأويل نص المنشورات الدعائية لأنه لا يعرف عادات البلد.

وفي أيار نزلت في فندقين في أمبريا وتوسكانا. وكلاهما بأربعة نجوم، وكان هناك وصف مفصّل لكل المزايا، وأغراني على وجه الخصوص «حوض السباحة الكبير المسخّن. ورأيت في الحديقة التي حظيت بالثناء، والرائعة الجمال بالفعل، على البعد، حوض السباحة الذي يبدو كأنه وحيد منعزل. ولم يكن هناك شيء، فلا ماء، ولا مضجع، وكل شيء ما زال شتوياً، وغير منظّف ولَفَتُّ الانتباه بحيوية، وبمنتهى الهمة والطاقة، إلى حوض السباحة المسخن. واصطدمت في المرتين باندهاش لطيف من دون تعذيب ضمير: اعتباراً من نهاية

حزيران سيفتح الماء على الحوض، وعند ذلك فحسب يكون للشمس طاقتها الضرورية التي تمكّنها من تدفئة الحوض. «أجل، إذاً فقد كان المقصود بكلمة مسخّن أن تتولى الشمس تدفئة الماء». ولما كان هذا يُمارَس من قِبَل كلا الفندقين من هذه الفئة، على هذه الطريقة، فقد اعتزمت أن أُدْخِل في حسباني هذه الصيغة، في الأقاليم الجنوبية. لقد أدى الوصف الموجود في منشورات الدعاية إلى تفويت هذا.

وفي هذه الأثناء توجد كتيّبات جمَّة العدد ومعلومات حول التفسير الواقعي للعروض. فإذا كان الفندق واقعاً في شارع مفعم بالحيوية في قلب المدينة، يعرف الإنسان المحنّك أن هناك جَلَبَةً، وأصواتاً عالية، وسيارات، وحافلات، وخطوطاً حديدية.

وإذا كان الفندق لا يبعُد أكثر من «عشر دقائق عن نقطة التقاء السُوَّاح الصغيرة التي تنبض بالحياة». فلا بُدَّ عندئذٍ أن ينطلق المرء من الحدود الخارجية لهذا المركز. وفضلاً عن ذلك فليس من المحدَّد على وجه اليقين مسألة كون هذه الدقائق العشرة سيراً على الأقدام أم انطلاقاً بالسيارة.

وهذه الصياغات الخطية - المؤمنة قانونياً - يمكن أن تحمل معاني متعددة. وهنا يستحسن ألاَّ يلجأ المرء في النقطة النهائية من المسافة إلى استعمال فأس النزاع، وأن يفضِّل التقدم بعد ذلك، بشكوى إلى منظِّم المشروع. على أن الناس الأكثر نباهةً، والمطَّلعين على القانون استطاعوا أن يسجلوا أوجهاً من النجاح، ورفضوا بحزم كل المعاذير، بل عقدوا صفقة مع هذا.

لقد لاحظت أن المرء حين ينظر في شيء ما بمزيد من الدقة، يرى أن لكل فئة مهنية، ولكل جيل، ولكل زمان معاذيره الخاصة.

٨- معاذير الممثلين

يعيش الممثلون من النص، ويتمثل الجزء الأكبر من عملهم في أن يكون هذا النص جاهزاً تحت تصرفهم - بعد إتقان تعلُّمه. وهناك ممثلون يتعلمون بسرعة، وآخرون يفعلون ذلك بصعوبة، وهذا شيء يحصل المرء عليه، وهو زميل في المدرسة، من خلال التجاريب، بسرعة، فيما يحصل عليه. وما من شك في أن بعض الممثلين كسالى فحسب، إذ يقول الواحد منهم في نفسه: «سوف أتعلم من خلال التجاريب أيضاً، بمجرد أن نردد الكلام ونكرره بما يكفي، ولكن يفترض في كل واحد منهم أن يكون قادراً على أداء دور في وقت ما، كائناً ما كان!

ومما يعد محبوباً إلى أقصى الحدود - ولكنه معروف جيداً من قبل - استعمال الثغرات التالية لتكون عذراً:

أ- (يظهر، ويتحدث حديث دوره: يا سيدي، ما أحسن لقائي بك...) (فترة توقف، ولكن النص يتواصل في الحقيقة): أما ما يتصل بمطلبنا التجاري المشترك، فأنا خليق، بعد تفكير أكثر نضجاً...، ثم ثلاثة جمل إلى أربعة أيضاً).

أ - (يظهر عندئذٍ) سيدي، ما أحسن لقائي بك... (يتعثّر، ويهز برأسه بحيوية، وينظر إلى الأمام، وينظر إلى ما وراءه، ويقطب جبينه، ويقول للمخرج) أنت، يا إرنست، انتبه... لقد فكرت في نفسي... هل ينبغي

لي أن أنتهي عند هذه الجملة، بالفعل، بعنفوان وتوثُّب - أم تفضِّل أن أتردَّد عند الباب، ثم أبدأ الجملة التالية - ما رأيك؟

المخرج (بصوت رقيق): كلا، الأفضل أن يكون بعنفوان وتوثُّب. سوف تمضي في النص وتقول بسلاسة تامة: أما ما يتصل بمطلبنا المشترك فأنا خليق، بعد التفكير الكثير... وهكذا دواليك.

أ- آه، هذا حسن، سوف أجرِّب (والحمد لله على أنه ما زال يحفظ النص بعدُ): يا سيدي، أما ما يتصل بمطلبنا التجاري المشترك... (عاد النص إلى الضياع من ذاكرته، ولمّا يتعلّم هذه الصفحات بعد).

أ - يقاطع نفسه، ويقول وهو يهزُّ برأسه) أنت، يا إرنست، هذا لا يروق لي، على نحو ما، فهذا شيء يثير اشمئزازي...

وهكذا تتواصل المسألة.

والزملاء يعرفون هذا، وهم يضحكون ضحكة المسرور بالأذى، أو يتولاّهم الغيظ، وهذه هي أحب معاذير الممثلين إلى أنفسهم حين لا يكونون تعلّموا نصّاً، وهم يودّون أن يُدْلوا بملاحظة حول الدور - بأسلوب «يتّسم بالسمة الإبداعية» ولديهم «خاطرة عفوية» وهناك، بالطبع، ملقِّن أثناء التجاريب. ولكن هذا المشهد بالذات كان ينبغي، بعد أسبوعين من العمل، أن يُجَرَّب تجربة فيها حفظ للنصّ أكثر، قدر الإمكان، فالويل للزميل (أ)!

ولو كان ذكياً لشرع في الضحك، أو ارتسمت على وجهه تقطيبة تنمُّ عن الندم. لقد ضبطتموني! ما زلت لا أتقن نصَّ المشهد.»

وما زلت أحتفظ، في ذكرى باعثة للكثير من البهجة والمرح، بالتجربة مع زميل ما عاد حظه من الشباب كثيراً، غير أنه معروف كثيراً في مسرحية بوليسية لعب فيها الدور الرئيسي للمأمور الجنائي، وكان الزميل المذكور، الذي كان يصرّح في المقابلات الصحفية، حين يُسأل عن هواياته، بأنه شهوانيٌّ ممارس ومن هواة السيبر نيطيقا، في ربيع حبه الثالث. وكان من الواضح أنه لم يكن يتوافر له الوقت الكافي لحفظ النص.

وحين كان يمثل دوره في إحدى التجاريب ظهر وهو يبتسم مشرق الأسارير، في باب الكواليس، وقال: «إذاً فسأظهر - والأرجح أني كنت في طور التبوّل على وجه الخصوص، وقد تخفّفت الآن وأصبحت في مزاج حسن. وماذا يحدث الآن؟»

المخرج (بصوت خفيض، وهو يَصِرُّ على أسنانه، لأننا كنا قد وصلنا إلى الأسبوع الثالث في تجاريبنا): لم تكن تتبوَّل، وأنت لم تتخفَّف، ولست في مزاج حسن، بل كنتَ اكتشفت لتوِّك، في الخارج، الجثَّة في الممرّ!».

ويضرب الزميل جبهته بيده، بأسلوب مسرحي «أجل، بالطبع! وقد كنت أقول في نفسي إن هذا سيأتي بعد ذلك بوقت طويل! إنه موقف متغيّر كل التغيُّر! وعلى هذا فأنا أظهر وقد أخذتني الصدمة...» (وفعل هذا أيضاً بسرعة، ومثَّل الاهتزاز والزلزلة في وجهه)... إذاً فأنا مصدوم تماماً... ثم ماذا؟ ثم ماذا؟؟ لقد غابت الكلمات عن ذاكرتي... نعم؟».

وكان يفتقر إلى الكلمات بالفعل، ولكن مع عذر الممثل الذي كان يُطبِّق المرة بعد الأخرى بنجاح وعلى نحوٍ كامل، كان يتخطَّى كل العقبات ويتفادى كل المصاعب، مرة بعد أخرى، بقوله: لا أعرف ماذا بعد هذا، فأنا لم أحفظ نصّي.

وهناك أيضاً سلسلة من معاذير الممثلين. غير أنها يُحاط بها علماً من قبل الجميع مصحوبة بردود فعل تتمُّ عن الاعتراف أو الأسف أو الموافقة، ولا توضع قطُّ موضع الشكّ - وعلى أبعد الحدود، وفي أي وقت كان، فيما بعد، تقال لامرئٍ آخر، ومع وضع يده قبالة فمه.

«أجل، أتراك تعرف، لقد كانت لي مؤخراً علاقة بثلاث حلقات تلفزيونية، وقد كان هذا خليقاً أن يتواصل بعدُ، ولكن جاء مخرج آخر - وأنت تعرف هذا - فهو يأتي بأعزائه المفضلين معه، ولكن باتت أمامي، على أثر ذلك مسألة جميلة جداً، متوقعة. ولو حدثت لكان فيها كسب كبير إلى أقصى الحدود - ولكن صَهْ! فالمرء لا يتكلّم إلا بعد أن يكون كل شيء كاملاً، قد تمّ التوقيع عليه...». وما من زميل يسأل عن هذا، وما من أحدٍ يدقق في مسألة هل يصحّ هذا، فكثيراً ما يكون هذا هو الذريعة المحترمة للآمال المحطَّمة، والاجتهاد والسعي العبثي.

وما كل واحدٍ من الناس في مثل مكانة مانفريد كروغ، وما كل واحدة مثل هانيلوره إلْزْنَر.

٩- معاذير هواة العلوم السريّة الخفيّة

وهنا فئة صغيرة من البشر يوجد تحت تصرفها فيض من المعاذير لا يفهمها إلا من كان في التفكير على شاكلتهم، وهؤلاء لا يتقبّلونها أيضاً من دون معارضة. وكثيراً ما يشير الواقفون خارج إطار هؤلاء إليهم بأنهم قوم غريبو الأطوار. ولكن لن يشير أحد من الفئة المذكورة إلى كلامه على أنه «معاذير». وعلى النقيض من كثير من البشر الذين

يعرفون بدقة بالغة أنَّ ما يمحونه بادعاءاتهم وما يخادعون به بل يكذبون، إنما يمثل عندهؤلاء البشر قناعاتٍ وفهماً للحياة، بل يمثل عند بعضهم تجاريب وخبرات.

وهواة العلوم الخفية يعيشون انتماءً كونياً إلى كل الأشياء، إلى كل التغيرات والأحداث التي لا سبيل إلى فهمها بالعقل، ويقولون: إن عطارد، كوكبي، يسير القهقرى منذ أسبوعين - وهذا ما أحسُّ به، فالمفاوضات مع الإدارة المنزلية لم تُفضِ إلى نتيجة، وفي المؤسسة لا تسير الأمور على ما يرام أبداً، وإنما هي جملة من حالات التردد في تحرُّكاتي، وجملة من المنازعات! ثم بعد هذا المريخ في برج الحمل، في حالة عبور... وليس هذا إلا الزعيق والصراخ مع الوالدين! وإذا أنا أُدّعى بالأمس، فأتعثّر عند الدرجات، وارتطم مرفقي ارتطاماً اضطررت معه إلى الذهاب إلى الطبيب! وفي حالتي سيضاف إلى ذلك أيضاً بلوتو في حالة تطابق...»

وهكذا دواليك، فلكل شيء علّته. ولكن أحدهم يتحدث بالقدر ذاته تماماً من البِشْر والسرور، عن المشتري الذاهب فوق الشمس - وعن الهمة والعزيمة اللتين يظفر بهما المرء هنالك! وكيف يستطيع المرء أن يفرض نفسه، ومقدار البراعة التي استطاع بها المرء أن يفرض نفسه في وجود الرئيسة الجديدة.

ومرة أخرى: بالنسبة للواقف خارج هذا الإطار يعتبر «عطارد الذي رجع القهقرى» «والمريخ الذي يعبر برج الحمل»، عذراً واهياً.

أما هواة العلوم الخفيّة فيعدون هذا بالقياس إليهم تفسيراً لا يُنقض، للإخفاق أو سوء السلوك، وللنجاح الطيب أو الفرص المفاجئة.

غير أن المرء يحتمل النكسات احتمالاً أسهل إلى حدٍّ ما، ويكون لديه تفسيره الباطني الخاص للجهود العبثية، ولما كانت الكوكبة الرديئة تمرّ مروراً عابراً أيضاً فإنه يوجد تحت تصرّف المرء احتمال الأمل. «وهكذا فاعتباراً من الرابع عشر من الشهر التالي يخرج المريخ من المربع، وتأتي نجدات من الزهرة وأورانوس...» أما غير المطّلعين فيقولون: «كل هذا معاذير!» على أن المسألة تأتي على نحوٍ أفضل، مرة في الحياة، أو يكون الذنب ذنب الآخرين - وفي هذه الحالة يكون ذنب الكواكب».

وفي حالة التبريرات أو التفسيرات عند أهل العلوم الخفية، أي في حالة هذه التي تسمى بالمعاذير لا يُواجَه بالمؤثِّرات الكونية، دائماً، سوى شخص المرء ذاته. أما الأفراد والآخرون فتكون إزاحة الذنب عن كاهلهم أكثر ندرةً إلى حدٍّ بعيد، وهذا غير مألوف وغير معتاد، حقاً.

ومهما يضحك الماديّون من هذا على أنه أوهام في العقائد، فإن صاحب العلم الخفيّ أقرب كثيراً إلى أن يكون مستعداً لالتماس علل مصيره في نفسه، وبنفسه.

أما المبالغون الذين يوردون، مقابل التأخر، أو مقابل لوح زجاج النافذة المكسور، أو محفظة النقود الضائعة، على الفور، عطاردَ سيئاً، أو كوكب المشتري في حالة معارضة، فلا يستطيع المرء أن يحملهم على محمل الجدّ، بالطبع.

وهذا كله ينطبق على كل أنواع السؤال عن المصير: على الإيقاع الحيوي، وعلى التكهّن عن طريق ورق اللعب، والعَرافة، والتكهّن بحركة بندول الساعة، وقراءة الكف والأحجار السحرية. وعندما نتوجّه، من جديد، خارجين من مجالات المعاذير هذه التي لا يمكن الإمساك بها إلى محاوراتنا الشخصية المباشرة، يستحق الملاحظة حقاً جسرٌ خصوصي يصل بين البشر.